

نشأة علم الكلام

انتهت الخلافة الراشدة وأصبح الملك عضواً، وتصدعت الأمة
بأحزاب سياسية وفرق دينية، ألفت السلاح في مواقع كثيرة
وبدأت المعارك الكلامية فشهدت الساحة جدلاً كبيراً بين الشيعة
والخوارج والقدرية والجبرية والمرجئة..

بقلم:

أ.د/ محمد سيد أحمد المسير

استاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر

علم الكلام وتبنته فرق المبتدعة المخالفين لأهل الحديث والسلف، ولهذا ورد الذم لعلم الكلام على السنة أئمة السلف، فقال أبو يوسف لبشر المريسي المعتزلي: العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل: زنديقي أو رمى بالزندقة..

وقال الشافعي رحمه الله تعالى:
حكى في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال هذا جزء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.

وتعددت كتب الأئمة في الرد على هؤلاء، مثل:
● كتاب الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل «ت ٢٤١هـ». وإن كان بعضهم يشك في نسبة الكتاب إلى الإمام أحمد وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء إنه موضوع عليه.

● وكتاب خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل للإمام البخاري «ت ٢٥٦هـ».

● وكتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة للإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة «ت ٢٧٦هـ».

ثم تميزت الخلافة الإسلامية منذ العصر العباسي الثاني (٢٣٢هـ) إلى دول متعددة، كالدولة الصفارية والسامانية في خراسان وما وراء النهر، والدولة الحمدانية في الموصل و حلب، والطولونية والإخشيدية في مصر والفاطمية في المغرب، والأغالبة في تونس، والإدراسة في مراکش والأُموية في الأندلس.

وقد قامت بعض هذه الدول منذ عهد مبكر في أثناء الخلافة الأموية في دمشق وفي أثناء العصر العباسي الأول..

وتعددت هذه الدول أدى إلى تعدد الاتجاهات المذهبية والفكرية، فكان منها الشيعة والسنة، ومنها المعتزلة والخوارج، واحتضن الخلفاء والأمراء أئمة هذه المذاهب، وقامت حركة تأليف واسعة في شتى فنون الفكر واتسع الجدل بين العلماء بعيداً عن ساحة الحكام، وقام علم الكلام جديداً في منهجه، ولقد تسلم بسلاح خصومه في المنطق ودرس الفلسفة وجميع الشبهات، وساق الأدلة العقلية على النمط المنطقي ليؤيد قضايا العقيدة وينتصر للدين ويدفع فتن الزنادقة والملحدين..

فكان أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٠هـ) فاتحة هذا العهد بعد أن ترك مذهب الاعتزال الذي ظل عليه أربعين عاماً.

وتدخل الفكر الوافد الفلسفي والصوفي ليولد في الأمة مذاهب هدامة وليشد من أزر الغلاة والزنادقة والملاحدة..

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه مقدمة لحديث جبريل المشهور عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر.

فوقف لنا عبدالله بن عمر بن الخطاب داخل المسجد فاكتفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلى فقلت:

أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتفكرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف..

قال ابن عمر: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنني برئ منهم وأنهم برأء مني، والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر.. ثم ساق حديث جبريل..

وقامت السلطة السياسية لنصر مذهب على مذهب حماية للدولة وليس ولاء لله.

وعلى سبيل المثال فإن أول من قال بخلق القرآن الجعد بن درهم، فقتله خالد بن عبدالله القسري يوم عيد الأضحى بالكوفة عام أربعة وعشرين ومائة، وخطب الناس فقال:

أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضج بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً..

ثم نزل فذبجه في أصل المنبر..!!

وشاء الله أن يقتل خالد بن عبدالله القسري شر قتلة، قتله يوسف بن عمر، فبتر قدميه ثم ساقه ثم فذبجه ثم صدره، فمات ولا يتكلم كلمة واحدة ولا تأوه حتى خرجت روحه.

وتدور الأيام دورتها وجاء الخليفة العباسي المأمون فاعتنق مذهب الاعتزال وحمل الناس على القول بخلق القرآن وأرسل عام ٢١٨ هـ كتاباً إلى والي بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يطلب منه امتحان القضاة والمحدثين في مسألة القرآن، كما أمره أن يأخذ على القضاة عهداً ألا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن..

ولقد تحمل الإمام أحمد بن حنبل عناء شديداً وبلاء كبيراً في مواجهة هذا التعصب السياسي على عهد المأمون والمعتصم والواثق إلى أن جاء الخليفة العباسي المتوكل فترك القول بخلق القرآن وأطلق سراح أحمد بن حنبل..

ولقد اشتهر الحديث عن العقائد في هذه المرحلة باسم

تعدد الدول بعد تمزق
الخلافة العباسية واحتضان
أمرائها لبعض العلماء أدى إلى
تعدد المذاهب والتيارات الفكرية